Sawsan Al-Abtah
"Alshark Al-Awsat" 2/28/2002

المثقف يهذي ايضاً.. في أميركا

الكارثة الأخلاقية في رسالة المثقفين الأميركيين انهم يدافعون برومانسية مريبة عن نظرية «الحرب العادلة»

الرسالة التي وجهها، منذ أيام، ستون مثقفاً واكاديمياً أميركياً إلى العالم الإسلامي، مطلعها حربي قتالي، وختامها ودي واخوي، وبين البداية الشاهرة سيفها والنهاية التي تمد يد المصافحة والمصالحة، ثمة إنذارات جاهزة لمعارك حضارية وصدامات فكرية وخلافات، لا بد تتساءل ما سيكون حال العالم خلالها، وكيف تراه سيصبح بعدها؟ اللهجة صادقة بقدر ما هي مراوغة، ومحبة بقدر ما هي مبغضة، وتسامحية بقدر ما هي حاقدة. وبين الظاهر والباطن وما يعرض عليك وما تكتنزه ذاكرتك من خلفيات مريرة تنسف قدرتك على الإيمان ببراءة الكلمات، تتلبسك بلبلة أمام هذا البيان العسكري ـ الثقافي، الذي ينظّر للقتل، ويؤبلج الحرب، ويفلسف حملة عسكرية مساحتها الأرض بطولها وعرضها (إذ لا حدود جغرافية محددة لها باعتراف المثقفين) باسم حقوق الإنسان والكرامة والمساواة والحرية. وبمعنى آخر باسم القيم الاميركية التي اصبحت «الإرث المشترك للبشرية، وبالتالي عليها يؤسس لأمل ممكن ببناء أمة كونية يسودها السلام والعدل». لا بد ان تصيبك البلبلة أمام جهابذة من المفكرين بينهم مشاهير، من وزن فرنسيس فوكوياما صاحب مقولة «نهاية التاريخ» وصموئيل هنتنغتون كاتب «صدام الحضارات» عندما تجد ان ما سطروه ومهروه بتواقيعهم لا يختلف ضمناً عما يمكن أن يصرح به اي من صقور الإدارة الأميركية.

وقبل أن تفترض بحكم حدسك العالمثالثي وإسقاطاتك المتسرعة ان هؤلاء المثقفين واصحاب المناصب الاكاديمية ما هم إلا ابواق للسلطة الاميركية، تجدهم ينبهونك إلى نقطة في غاية الاهمية: «في ديمقراطية كديمقراطيتنا، حيث سلطة الحكام تنبعث من موافقة وقبول المحكومين، تجد السياسة جذورها، ولو جزئياً في الثقافة وفي القيم وفي خصوصيات المجتمع ككل»، اي ان هذه النخبة تعتبر نفسها مشاركة في صنع القرار السياسي. والمجتمع بأسره ـ كما هو بيّن في الرسالة ـ مسؤول عن النهج السياسي الاميركي. والرسالة تخبرنا بوضوح، لا يقبل اجتهاداً في التفسير، ان الشعب الاميركي، لا الإدارة وحدها، يشن مصمماً «حرباً عادلة» لا هوادة فيها. اما الهدف منها فهو «تاسيس مجتمع مدني دولي قائم على العدل». وإياك وأن تظن بان ثمة دوافع غزو، أو طمع، أو اية مصلحة سياسية يمكن ان تشوب هذه الخطة النبيلة، والنظيفة بنقاء الثلج، والتي تعد الإنسانية بالجنة على الأرض شرط ان تنصاع إلى شروطها.

كل هذا جميل لو راى المثقفون الاميركيون خطراً واحداً في العالم، يحول دون احلامهم البديعة، يضيفونه إلى «الإسلام الاصولي»، وهم يصورونه لنا وكأنه العائق الأوحد المتبقي امام الإنسانية للوصول إلى سن النضج الاميركي. هل هذا معقول؟

والكارثة الأخلاقية في رسالة المثقفين المنافحين عن الأخلاق، ولا شيء غير الأخلاق، ليست فقط في انهم يدافعون برومانسية مريبة وخطيرة عن نظرية «الحرب العادلة» التي تبرر لكل من يدعي صلاح مشروعه الايديولوجي ان يعلن حرباً على الآخرين، وليست فقط في انهم يحصرون تنكب الشر في العالم بفئة الإسلاميين الاصوليين، وإنما هي ايضاً في مجموعة من الادعاءات المتشنجة، والقرارات القاطعة التي تضمر غطرسة، ونية مبيتة في استبعاد بقية الخلق عن المشاركة في صنع مصير هذا الكوكب. ومن هذه المواقف واشدها فوقية وتطرفاً، رفضهم الاحتكام لمنظمة الأمم المتحدة قبل شن هجوم عسكري وذلك لأسباب منها: ان المنظرين، تاريخياً، لـ«الحرب العادلة»، لم ياخذوا في الاعتبار الموافقة الدولية كضرورة «ثم ان لا شيء يثبت ان منظمة دولية كالأمم المتحدة هي الاجدر باتخاذ قرار، متى وفي اي ظروف يكون استعمال السلاح مبرراً، دون ان ننسى ان الجهود التي تبذل من أجل تطبيق قراراتها تعرض للخطر، مهمتها الأولى، التي هي إنسانية». ثم يستشهد موقعو الرسالة بمقولة لمساعد سابق للأمم المتحدة يعتبر فيها ان لجوء دولة لجهة دولية لتنظيم استخدامها للقوة «قد يكون مشروعاً انتحارياً».

ولا يغرنك ان يتحدث الموقعون عن انحراف في السياسة الخارجية، او عيوب في المجتمع الاميركي لأنها تاتي موجزة ومن باب رفع العتب. إذ رغم المزاعم الاخلاقية، لا تعثر في الرسالة على ذكر ولو عابر لفلسطين، او اي قضية أخرى محقة في العالم غير ما جرى لأميركا يوم الحادي عشر من سبتمبر، وما على الاميركيين فعله لقطع دابر «الشر»، وكأنما كرامة العالم وحريته التي يتحدثون عنها بإسهاب إنشائي ممل تختزل باسترداد الكرامة الأميركية لهيبتها. وهي لدهشتنا ـ حسب ما يفهم من الرسالة ـ ما تزال مقهورة ومجروحة، وكأن حرب افغانستان لم تقع وحركة طالبان لم تفكك، وعناصر تنظيم القاعدة لم يقتلوا ويؤسروا ويطاردوا في انحاء البسيطة.

مقلقة هذه الرسالة التي توحي بانها كتبت يوم الثاني عشر من سبتمبر على وقع انين القتلى والجرحى، ومخيفة للغاية النزعة التطرفية والتفرقية فيها والتي لا تخفف من حدتها دعوة المسلمين إلى صداقة واخوة إنسانية مع الاميركيين. إنها رسالة استفزازية وديكتاتورية الرؤيا، لكنها في غاية الأهمية، لأنها تفتح باباً، ولو ضيقاً، للحوار ولإبداء الراي العربي، وتضع المفكرين العرب أمام مسؤوليتهم في بلورة رد جماعي واضح وصريح من دون مواربة او مداهنة، يكون ناطقاً بضمير هذه الامة التي تنشد الحرية والعدالة ولا ترى في التطرف الإسلامي نموذجاً ولا حلاً، لكنها في الوقت نفسه، لا تجد خلاصها في تطرف آخر، اميركي هذه المرة، لا يقل تعصباً عن الاول ان لجهة إيمانه بمشروعية الدفاع عن تطلعاته بالعنف المسلح وتحليل القتل من اجل نشر ما يسميه «الخير» او لجهة رفضه لدور الأمم المتحدة او حتى نزعته الأممية.

اي قدر هذا الذي يجبرنا ان نبقى رهائن هلوسات المتطرفين من الجهتين: جهة تدّعي ملكيتها لمفاتيح الفردوس السماوي، والثانية تزعم انها وحدها صاحبة مشروع الفردوس الارضي. وبين الجنتين المزعومتين، والمدعومتين بايديولوجيا العنف، هدرت اعمارنا وتحولت الحياة جحيماً لا يطاق.

sawsan_abtah@ hotmail.com